© دراسات مغاربية ، مجلة البحث والبيبليوغرافيا المغاربية، عدد 9، 1999، ص 3-17

جغرافية «المخطوط الذي عثر عليه في سرقسطة»

● فرانسوا روصي
جامعة لوزان
ترجمة وتعريب : بشير القمري

تقديم المترجم : وقع الترجمة

الترجمة خيانة. هذا صحيح ومؤكد مائة في المائة. وإذا لم تكن الترجمة كذلك بهذه النسبة، تامة ومستوفية، فهي بنسب قريبة منها، تزيد أو تنقص، تقل، تضعف أو تقوى بحسب إكراهات عديدة : إكراهات النص في حد ذاته بين الانقياد والتمنع والجفاء، إكراهات اللغة بين القدرة والإنجاز والمقبولية وامتلاك عدة «جهاز» النحو والتركيب والتواصف والصياغة، إكراهات الثقافة والنسق والسياق والمجال المعرفي، القيم الوظيفية للنص – الأصل والنص المترجم وهو يرتحل، يسافر، يهاجر، بين لغتين ولسانين، القيم الأخرى (وجودية، أخلاقية، خلاقية، أونطولوجية)، ثم : الرغبة. يجب ألا ننسى الرغبة، ليس بالمعنى الجاف والسريع والمرتجل بل بالمعنى الآخر الذي يبقى دائما سرا طي الكتمان.

أتحدث هنا عن رهان رغبة الإقامة في إبدالات النص الذي يقترح نفسه ويقترح تبني هُويته، ليس لأنه لقيط أو مهموز النسب أو يبحث عن ولاء، وإنما لأنه منك ويعود إليك وأنت لاتدريه، أو أنك نسيته فعاد إليك يطلب ودك : إن كل نص نتمنى ترجمته، وقد نترجمه أولا نترجمه لأسباب، ينبغي أن يغرينا بشيء فيه أو حوله، بشيء يشدنا فيه وإليه، منذ القراءة الأولى والثانية والعاشرة، بل بشيء يتحدانا ويقلقنا ويثيرنا إما بجماله أو باكتمال جذوة اشتعاله، ثم بجرأته ومغامرته، وبحسب العلاقة التي تتأسس في كل هذه السيرورة التي تشبه المتاهة السرية الطويلة التي نسير فيها فرحين جذلين، لكن نسير فيها أيضا متعبين متوجسين حانقين حذرين متوترين. متاهة لا ندري متى سنخرج منها وكيف نخرج وقد دخلنا مدفوعين بجاذبية إغراء لا يقاوم. نقف. نستجمع قوانا وأنفاسنا. نمضي. نعود من حيث أقبلنا. نتوقف، وقد نمل ونسأم ونترك كل شيء لنفعل أي شيء إلا أن نترجم. ومع ذلك نستمر ونقاوم ونصل مكللين بمتعتنا رغم الإجهاد.

الترجمة خيانة. هذا أكيد، لكن الترجمة أيضا سفر لا يمكن أن نحرم أنفسنا منه، وإن كان السفر جزءا من جهنم. وما شدني إلى هذا النص : **«المخطوط الذي عثر عليه في سرقسطة»** وجذبني بإغراء شديد هو أنني استمعت إليه أثناء فصل الخريف الماضي (بالضبط : يوم الثلاثاء 25 نوفمبر 1997) من فم صاحبه فرانسوا روصي يلقيه على مسامعنا – نحن معشر أساتذة وطلاب ومثقفي جامعة محمد الخامس في الرباط – في إطار أيام دراسية وعروض سينمائية ومسرحية مدارها شخصية هذا الكاتب البولوني جان

بوتوكي (1761–1819) الذي جمع بين الدبلوماسية والتاريخ والأدب والفيلولوجيا، وكانت هذه الأيام الدراسية من تنظيم جامعة محمد الخامس وسفارة بولونيا وسفارة فرنسا وسفارة سويسرا ووزارة الشؤون الثقافية المغربية ثم المركز الثقافي الفرنسي في الفترة الممتدة بين 25 و28 نوفمبر 1997. وما إن انتهى العرض حتى اقتربت من صاحبه وطلبت نسخة منه، فاستجاب مشكورا. وعندما اقترحت عليه إمكان ترجمته إلى العربية لم يتردد لحظة، بل إنه –كما عبر لي في حينه– سيكون مسروراً بأن ينتقل هذا النص إلى لغة يرتبط بها في أغلب إحالاته الثقافية والتاريخية والجغرافية والمعرفية من بدايته إلى نهايته. وهكذا كان.

استلمت النص (حوالي أربع عشرة صفحة من الحجم الكبير : 30 س x 21 س، معدل كل صفحة من السطور سبعة وثلاثون سطرا، وكل سطر بمعدل ثلاث عشرة كلمة)، ومنذ يوم استلامه وهو يحاصرني إلى أن حلت عطلة الصيف فآليت على نفسي أن أتخلص من عدة التزامات لا فائدة منها، وعكفت على إنجاز الترجمة كي أحقق الوعد الذي قطعته مع صاحبه، وليس الوعد وحده، وإنما الوقع الذي تركه النص في أعماقي. فبالإضافة إلى عمقه وقيمته كنص يهم نقاد الأدب ومحلليه بقدر ما يهم المؤرخين وسواهم ممن يهتمون بنظرية–نظريات النص والتأويل، بل التفكيك والهيرمينوتيك أحيانا. ومادمت قد ذكرت التفكيك لابد من الإشارة إلى أن الطريقة التي يقترحها فرانسوا روصي تقارب هذا المنحى في مقاربة نص «**المخطوط الذي عثر عليه في سرقسطة**» إذ ينطلق من بؤرة أساس هي موقف الرحالة – عادة – من «الآخر» ويربط ذلك بسيرورة من انفجارات النص كشبكات دلالية وأنسجة إيحائية، ثم يقترح صيغة تجاوز المعنى الأول إلى المعاني السنخية الكامنة في ثقل النص على أنه – ضمن ذلك – يتوج مشروع قراءته بما يسمى الآن «القراءة المتعددة»، فيها تحديد جنس النص حسب برنامج القراءة، وفيها تكون النص من منظور «علم النص» (textologie)، وفيها الكشف عن السياقات والأنساق المتحكمة في كتابته وفي إنتاج دلالته الثاوية خلف أقنعة الكتابة. ويستفيد فرانسوا روصي في هذه القراءة–الدراسة، خاصة، من مقترحات السرديات والسيميائيات وتحليل الخطاب، على أنه – بهذا وبغيره من الأدوات الإجرائية والمفاهيم – يتجه إلى «ذاكرة النص» ملتحمة بذاكرة كاتبه. وكما يتحول المخطوط إلى «رواية» في نظر روصي، فإن رحلة بوتوكي تتحول إلى «سيرة» مضاعفة ومتعددة.

تمتد الصفحة الأولى في النص الأصل –بعد اسم الكاتب وعنوان النص– من قوله «يسجل بوتوكي– ها أنذا أحيل على النص المترجم ! – في مسرد رحلته إلى المغرب»، وتنتهي عند قوله «تبين الصلات التي تربط العالم الفعلي» (السطر السادس عشر من الترجمة)، والبقية كالتالي :

النص الأصلي (من)	النص المترجم (إلى)
– ص 2 : «العالم الفعلي»	«وصفها (كازانوفا)».
– ص 3 : «قصة حياتي»	«الروح والجسد»
– ص 4 : «منفى أو سعادة»	«هذه المدينة»
– ص 5 : «قديم»	«الأولى»
– ص 6 : «الأولى»	«في المغرب»
– ص 7 : «في المغرب»	«الرحالة»
– ص 8 : «ثم مكان»	«من معهم»
– ص 9 : «يوهمون»	«نمشي فيه»
– ص 10 «يخلع المعنى»	«نمطين مختلفين»
– ص 11 : «بطريقة»	«تقاطع والتقاء»
– ص 12 : «واجتماع»	«حروف التاريخ»
– ص 13 : «حروف التاريخ»	«جغرافية الكتب»
– ص 14 : «حروف التاريخ»	«داخلها بالذات»

بالإضافة إلى هذه الملحوظات العامة يمكن أن نشير إلى عناصر ومكونات عامة أخرى منها كتابة أسماء بعض الأعلام وبعض الأماكن مثلا. وبهذه الغاية كان علينا أن نوضح أن إسما مثل سرفانتس المتداول في اللغة العربية هو في الأصل الإسباني ثِيرْفَانْتِثْ وينطق في الفرنسة سيرفانتيز واسمه الكامل هو ميكيل ثِيرْفَانْتِثْ سافيذرا (1547–1616) صاحب الرواية المشهورة «النبيل اللبيب دون كيخوتي» التي ذاعت باسم «دون كيخوتي» فقط، وقد ترد – بالفرنسية – «دون كيخوت»، وترد في الكتابات القديمة «دون

كيكسوت». أما فرانسوا رابلي الذي يحيل إليه النص فهو كاتب فرنسي (1483–1553)، تلقى تربية دينية في دير فرانسيسكاني، قرب مدينة أنجير (Angers)، وأصبح راهبا بين 1520 و 1538، ثم خلع رداء الرهبنة وتزوج واتجه إلى الكتابة السردية الروائية، وأقبل على دراسة الطب، وألف كتبا طبية ونشر رواياته بانتاكرويل (Pantagruel) وغيرها، ويكتب إسمه هكذا (Rabelais). يحيل النص أيضا إلى بني السراج (Abencerrages) وهم أسرة عربية عريقة ساهمت في عدة أحداث في بلاط مملكة غرناطة في نهاية القرن الثامن الهجري وبداية القرن التاسع، واستلهم ذلك الكاتب الإسباني خينيس بيريزذي هيتا في روايته «حروب غرناطة الأهلية» (سنة 1595).

والكاتب الفرنسي شاتو بريان في قصة «مغامرات آخر بني السراج» (سنة 1826) وينحدر الكاتب جيوفاني جياكومو كازانوفا (1725–1798) الذي يحيل إليه النص أيضا من أصول إيطالية وعقد العزم على الترحال والسفر طيلة حياته مطبقا شعار «سر في أثر إلهك» (Sequere deum)، وكان وراء ظهور اليانصيب الوطني في فرنسا، ألقي عليه القبض لخلاعته، واشتغل جاسوسا لعدة حكومات، وتوج كل ذلك بكتابة قصة حياته التي اشتهرت أيضا بـ«يوميات كازانوفا».

من بين الأماكن التي يشير إليها النص الأردين (Les Ardenes)، وهي منطقة يغلب عليها الطابع الغابوي وتخضع للدولة البلجيكية في حدودها المشتركة مع فرنسا واللوكسمبورغ، تمتد على نحو عشرة آلاف كيلومتر مربع، وعرفت معركة شهيرة باسمها في الحرب العالمية الأولى (23 غشت 1914). ومدينة إشبيلية –تكتب وتُنطق بالإسبانية سيفيا (Sevilla)، وبالفرنسية سيفي (Séville)–مدينة تقع في إقليم أندلوسيا (الأندلس) في الجنوب، على ضفاف نهر الوادي الكبير غْوادا لكفير، بالإسبانية دائما. يبلغ عدد سكانها حاليا حوالي 487 683 نسمة. أحدثت جامعتها سنة 1502 وأشهر أحيائها سانتاكروز، ومن أشهر فنانيها زورباران، موريو، فالديز، كما أنها مركز سياحي. بناها القرطاجنيون، وفي سنة 712 دخلها العرب بعد الرومان والفزق (les Wisighots)، وعند سقوط غرناطة أصبحت عاصمة العرب. استعادها الملك فرديناند الثالث وغادرها العرب فسكنها القشتاليون والكاطالونيون والجنويون واليهود. ومدينة تطوان – بالبربرية ثيطاوين (جمع ثيط، بمعنى العين)، مدينة تقع في شمال المغرب على مقربة من مدينة طنجة، يبلغ عدد سكانها 000 227 نسمة، بناها المرينيون واحتلها الاستعمار الإسباني سنة 1860، قامت على إثر ذلك حرب تطوان الشهيرة، واحتلت ثانية سنة 1915 إلى مجيء الاستقلال، كانت توجد قبلها – قريبا منها – مدينة تامودا، ومن كتابها المغاربة في العصر الحديث الفقيه محمد بنداود المؤرخ، صاحب «تاريخ تطوان» والفقيه العلامة التهامي الوزاني (صاحب «الزاوية» – رواية وسيرة ذاتية صدرت سنة 1942، و«سليل الثقلين» – من أساطير الأولين، سنة 1950)، والكاتب المرحوم مصطفى الصباغ (توفي سنة 1961 في حادثة سقوط طائرة)، وأخوه محمد الصباغ (له عدة نصوص)، والكاتب الناقد إبراهيم الخطيب والكاتب الناقد نجيب العوفي والشاعر محمد الميموني (مقيم بها) وغيرهم. وتقع مدينة قادس –كاذيس بالإسبانية (Cadix) أو «قادش» في أقصى جنوب إسبانيا، أصلها روماني واحتلها العرب مع الفتح، سكانها حوالي 558 156 نسمة. ولا يفوتنا أن نشير إلى مدينة سرقسطة التي ترد في عنوان النص المترجم وهي بالإسبانية ثاراغوثا (Zaragoza)، كما أنها عاصمة إقليم أراغون، سكانها حوالي 401 614 نسمة، أصلها مستعمرة فينيقية قبل احتلالها من لدن العرب سنة 712 م.

بشير القمري

نبذة مختصرة

جان بوتوكي (1761–1815)، أو يان بُوتوكي (Ian Potocki) الذي مات منتحرا : مؤرخ، رحالة، دبلوماسي، نسابة، مسرحي، رسام وكاتب ؛ دوّن أبحاثه ودراساته ورحلاته باللغة الفرنسية. وهي على التوالي :

1 – أبحاث في الموروثات السلافية القديمة (سنة 1795)،

2 – تاريخ شعوب آسيا البدائي (سنة 1802)،

3 – «المخطوط الذي عثر عليه في سرقسطة» (1804).

بقدر ما يجنح كتابه «المخطوط» – المتَرْجَم – نحو الأسلوب السردي–الروائي، ويمتزج فيه المتخيل والعجائبي والأسطوري، إلى جانب أدب الغواية والرعب، تقدم كتبه الأخرى أدلة على ما يجعله عالما إثنولوجيا وأنثروبولوجيا، يبحث في الظواهر الثقافية والحضارية والإجتماعية وتقاطعاتها. كما تؤكد هذه الكتب معرفته بالإسلام والشرق عموماً، خصوصا في مظهره الروحي والديني، دون أن ننسى المعلومات التي يقدمها – على غرار الجغرافيين القدماء – حول المناخ والنبات والوحيش.

نقلا عن :

Le Petit Robert des Noms Propres,
Montréal : Canada, 1994, p. 1674.

ورقة الأيام الدراسية المشار إليها في التقديم،
تحت عنوان : جان بوتوكي : رحالة عصر الأنوار.

جغرافية «المخطوط الذي عثر عليه في سرقسطة»

«رحلات عبر فضاءات متعددة، رحلات بواسطة خرائط عدة دَرسْتُ، وعلى المرء أن يتيه من فضاء إلى فضاء، ومن دائرة إلى دائرة، ومن خريطة إلى خريطة».

ميشيل سير[1]

يسجل جان بّوتوكي (Jean Potocki)، في مسرد رحلته إلى المغرب عدد «الأعراف المشتركة» الكبير الذي يوجد بكثرة ونستطيع أن نلحظه بين إسبانيا والمغرب، غير أنه يضيف إلى ذلك، فوراً وبالتحديد، أن «الكراهية التي يكنها سكان المغرب من "الأهالي الأجلاف" للإسبانيين هي في القوة والشدة بمكان بحيث يتجاوز ذلك حد اللزوم» ؛ ثم يسوق كاتبنا الذي أقبل من بولونيا قصة الإنجليزيين اللذين أرادا اختبار مدى هذه الكراهية، فتقدما للأهالي بصفتهما إسبانيين، في ضواحي مدينة تطوان، فما كان من هؤلاء الأهالي إلا أن أمطروهما «وابلا من الضربات التي كانت على وشك أن تودي بحياة هذين الفضوليين» (ص 174)[2].

أكيد أنني لست إنجليزيا، ولا أنا بولوني بالمرة أو بما فيه الكفاية، غير أنه، مراعاة لتقليد الحياد والحذر الذي يتربى عليه الجميع في بلدي سويسرا، فإنني سأجازف بأن أتحدث إليكم هنا عن جغرافية رواية تكمن حبكتها وتدور حول ما يجري من أحداثها في إسبانيا. المجازفة التي أتحدث عنها ليست كبيرة في الحقيقة، وذلك لأنني خلال قرنين من الزمان، كان من حقي أن أعتقد أن الزمن قد فعل ما فعل وضمّد جراحاً ظلت حية في حياة بوتوكي، ولأنكم، من جهتكم وبصفة خاصة، ستنتبهون فورا إلى أن الجغرافيا التي أريد أن أحدثكم عنها ليست جغرافية بلدٍ فعلي يمكن أن يغذّيَ، بإيعاز من مصادفات التاريخ، كل أنواع العواطف الجياشة التي يمكن تفهُّمُها، وإنما هي جغرافية عالم روائي. وعليّ أن أضيف مباشرة بأن الأمر يتعلق بعالمٍ روائي شيَّده كاتب يحرص بشدة على تبيّن الصّلات التي تربط العالمَ الفعلي بتشخيصاته وتمثلاته، أي العالمَ الذي نستطيع اختراقه والتجول فيه وزيارته، بالعالمَ الآخر الذي نكتشفه ونحن نقرأ الكتب. أريد أن أتحدث، بالطابع الواسم، عن هذا الكاتب البولوني بّوتوكي الذي يسافر إلى تركيا وهو يبحث عن الأماكن التي احتفلت بها «الإلياذة»، الكاتب الذي يرى المغرب وهو يحيل على عالم «ألف ليلة وليلة»، وذلك بنفس ما كان يحدو بطل «المخطوط» وهو يطوف عبر أرجاء إسبانيا متذكراً كل القصص التي ألهبت خياله وهو «في مهد طفولته» كما يقول.

إننا لا نعرف بدقة متى بدأ بّوتوكي كتابة هذه الرواية التي لم يكن، فيما يبدو، يعيرها الاهتمام اللازم، رغم أنها ستضمن له شهرة ومجداً، شهرة ستأتي متأخرة، لكنها ستكون شهرة رفيعة وهامة. أولى القرائن لهذه الكتابة ومؤشراتها يعود تاريخها إلى سنة 1794، وأولى المقتطفات إلى سنة 1997 على الأرجح، أما المقاطع الأولى التي طبعت فتعود إلى سنة 1804، بينما الصيغة النهائية سنة 1815. لكننا نجد في الرواية، مع ذلك، آثاراً وفيرةً لتجارب عاشها بوتوكي منذ منتصف سنة 1770، تجارب تمتد إلى ما بعد ومتضمّنة في الرواية،

خاصة منها ما عاشه سنة 1791، كما ينبغي أن أؤكد ذلك وأقوله بدقة ووضوح، أي السنة التي ستشهد كاتبنا يسافر إلى المغرب. ومن بين الملحوظات التي يصوغها خلال هذه الرحلة يمكن أن نسوق هاته على الأقل : «إن الروايات الإسبانية مصنفات تتضمن ما يكفي من التخيل، لكنه ليس تخيلا بالقدر الكافي الذي نعثر عليه في الحكايات الخرافية [. . .] التي ينبغي أن نقرأها دائما عندما نكون في حضرة العرب» (ص 294). إن الحكايات الخرافية على الطريقة العربية، ليست جديدة على بوتوكي، فهو لم يسمع بها فقط، من جبال القوقاز إلى الرباط، مروراً بالقسطنطينية، بمصر وبجربة (جزيرة في تونس) ؛ بل ألّف، هو نفسه، حكايات خرافية قبل أن يشرع في كتابة «المخطوط الذي عُثِر عليه في سرقسطة»، الكتاب الإسباني الذي يحفل بالتخيل بقدر ما تحيد فيها الجغرافيا عن طريقها وتميد بصيغ شتى، كما سأحاول أن أبين لكم.

بعد «مدخل»، سنعود إليه باختصار فيما بعد، تبتدأ الرواية «بأول» يوم من أيام الرحلة الستة والستين عبر تخوم إسبانيا، في صيغة «يوميات». ومؤلف هذه اليوميات، التي سيعلم القارئ أنه يسمى ألفونص فان وُورْدَنْ (Alfonse Van Wurden) ؛ يفتتح مَحْكِيَهُ بتحديد زمني ومكاني في نفس الوقت : «لم يُقم الكونت دو لا فيدِث (Comte Pablo de la Vedette) مستعمرات أجنبية بعدُ في سلسلة جبال ومرتفعات وسهول الشييْرا مورينا (sierra morena)» (ص 5)[3].

إنها شخصية تاريخية واسم موقع محدد يلتحمان ويتجاوران، إذن، في هذه الجملة الأولى التي تستحضر «مشكلة» الشييْرا مورينا الشهيرة التي وصفها كازانوفا (Casanova) في كتابه «قصة حياتي»، أي مشروع حملة الاستعمار المنسقة في نهاية سنة 1760، من طرف الكونت بابلو دو لا فيدِث، وزير الملك شارل الثالث، وبهذا الشكل يكون برنامج وسياق المحكي قد ارتسم تاريخيا، بل نستطيع أن نحدده بدقة أكثر فيما بعد في سنة 1739، غير أنه ليس جليا أن التاريخ وحده هو الذي يفيد هنا. الأهم من ذلك هو أننا نجد أنفسنا، منذ البدء، في أزمنة مضت لحظة تعبير السارد عما يكنه ويريد البوح به : إنه زمن لحظة ما قبل تتميز عن لحظة ما بعد، أي زمن اكتساح تلك المفازة الجبلية وإخضاعها بالقوة بعد وحشتها من طرف ألفٍ من المعمرين السويسريين. زمن بدائي بشكل ما، زمن تبدو فيه هذه السلسلة الجبلية قادرة على استيعاب وتقبل كل النزوات والخيالات، بل كل أشكال الجنون كما نعرف ذلك منذ ميكيل دي سرفانطيس (Miguel de Cervants)، صاحب «الدّون كيخوته (Don Quichotte)» ؛ خاصة وأن سارد بّوتوكي يمدد جملة سرده الأولى ويؤكد بصدد الشييْرا مورينا أنها «سلسلة جبلية شامخة، تفصل بين بلاد الأندلس والمضيق، لم يكن يقيم فيها بعد سوى المهربون واللصوص وبعض الغجر الذين يقال عنهم أنهم يفترسون الرحالة والمسافرين الذين يقتلونهم». إنها تلك الربوع التي سيكتشفها ألفونص فان ووردن، صفحات فيما بعد، من على قمة ربوة عالية قائلا : «لم أكن أرى إلا السهل الموحش والمتوحش، فلا أثر للرجال ولا الدواب ولا منازل، لا طريق إلا السبيل الذي سرت فيه، ولم يكن أحد قد مر منه، والصمت المطبق في كل صوب وناحية» (ص 8). إجمالا : إنها سلسلة جبلية بكر ولا ترحب بالضيف لأول وهلة، شبيهة بأخريات من طينتها، أقول ذلك ويكفي أن نستدل، في هذا المقام، بمثل واحد يعفينا، فقد سبق لبوتوكي، على مشارف ملتقى قمم جبال الأطلس التي شاهدها في المغرب، أن قال : «هذه التضرسات الأرضية هي أكبر العقبات التي تقف في وجه التمدن، فَمَنافيها توفر للعصيان إفلاتا مضمونا» (ص222).

منذ الجمل الأولى التي نقرأها في الرواية، بل منذ ذكر فضاء الشيرا مورينا الذي سيؤوي ألفونص أثناء أيامه الستة والستين من مغامرته، سيتقدم هذا الفضاء مثل مكان محدد الهوية جغرافيا من لدنه، لكنه سيكون فضاءً مضاعف الهيئة بقيم تشده إلى قيم فضاءات أخرى من نفس النمط : كل جبل متوحش ومعزول، هو فضاء ملائم للكفر والخروج عن الطاعة والانحرافات والأشياء الشاذة الغريبة.

وليس على القارئ من حرج إذا ما هو اتبع رأسا نفس التداعيات التي كان يُجريها كازانوفا عندما كان

يتحدث عن مشروع الاستيطان الذي قاده الكونت دو لا فيدث، ويتحدث عن إطار حملته، فالشيرّا مورينا «إسم شهير، يقول، ومعروف جدا من لدن كل أولئك الذين قرأوا معلمة سرفانطيس، الرواية الشيقة، التي ترسم قصة الدون كيخوته بدقة»[4]. إننا نلج، مع بطل بوتوكي إذن، هذا الفضاء الذي سيجرد فيه حمق الدون كيشوت على البطل رداءه المُواتي، ويبدو الفارس التائه متجها للقاء مختلف المحرومين التعساء بحثا عن طمأنينة في داخله، وعن طهارة من درن الروح والجسد، عن منفى أو سعادة. إننا ننحشر بالفعل في ثنايا رواية من تلك الروايات الإسبانية التي «يقوم فيها الخيال فعلا»، يقول بوتوكي. وعند قراءة «الأيام» الأولى نلاحظ أن هذا الخيال يشرئب بأفضلية نحو سجل الغريب المثير ونحو الشعور بالخطر الشيطاني، كما يفضل سجل الغموض. فقد اختار ألفونص فان ووردن أن يمر من هناك لأنه كان الطريق الأقصر للالتحاق بمدريد من مدينة قادس (Cadix) التي انطلق منها ؛ وكان يريد أن يتنقل من نقطة إلى أخرى حسب الخريطة، غير أنه ها هو ذا مُلْقى في موضع محمّل بشحنة أدبية تتأكد توّا عندما يمتد الأفق إلى ما لا نهاية، وها هو ذا الطريق يختفي مع منعطفات الصخر، وهاهي نقط الاستدلال التي يعرفها في الخريطة قد بدأت تتضبب وتغيم دون أن يكون هناك أحد يهدي إلى السبيل أو يمنحه معنى. وعندما يحضر أحد ما، فإنه يحضر لينبه أو يحذر وينذر وينصح بعدم التقدم أبعد من ذلك في هذا البلد الذي ينظر إليه كبلد ملعون، ولا يسكنه بعد أولئك الرجال الذين أُوكلت إليهم رسالة التمدن، بالمعنى الديني، وإنما يسكنه الشيطان نفسه.

هكذا إذن تكون الأيام الستة والستون التي قضاها ألفونصْ في الشيرّا مورينا بمثابة حياة «بين هلالين» (أو بين قوسين)، بمثابة تعطيل السير أو تعطيل الزمن في فضاء تضافُري، إنه توقف وانقطاع عن السفر الذي كان ينبغي أن يقود بطلنا من مدينة إلى أخرى على خط يتجه من الجنوب نحو الشمال، متبعا في ذلك مرامي محددة لأنه يتعلق باللحاق بحاضرة ملك إسبانيا، كي يتحمل، في جند الحرس الوالوني (wallonie)، عبء رتبة قائد لسرية في الجيش بدرجة نقيب، وهي مسؤولية تثير العجب في النفس بالنسبة لهذا الشاب ذو السبعة عشر ربيعا.

ستحدث، بالطبع، عدة أمور أثناء هذه الأيام الستة والستين، وفيها أن الشيرا مورينا ستكشف له سريعا بأنها ليست موحشة يباباً كما قد كان يبدو وذلك لأول وهلة، وأن المغامرات التي يمكن أن يحياها المرء فيها، كتلك التي سنسمع بها في مسرد حكاية «المخطوط»، ليست كلها مغامرات مرعبة، غريبة وشيطانية، بل بعيدة كل البعد أن تكون كذلك، غير أنه قبل اللجوء إلى ذكر هذه الأحداث وذكر قصص هذه الأحداث، لنرَ، في البداية، كيف يمكن أن تتحدّد العلاقة بين حياة التوقف «بين قوسين» وبين الرحلة التي توقفها. ولتحقيق هذه الغاية، نجد أنفسنا مدفوعين إلى قلب موازين تسلسل الرواية الزمني، أو نظام القراءة، وذلك بهدف إعادة بناء تتابع خطي للوقائع عن طريق إعادة تنظيم المعلومات التي يوزعها السارد على حساب لقاءاته والأسئلة التي تطرح عليه.

إذا نحن صدّقنا ما يدلي به ألفونص فان ووردن، فإن رحلته قد تكون بدأت بدقة قبل أن يولد، بل قبل حمل أمه به. أبوه، الذي رأى النور في إقطاعية آل وورْدَن، قرب بويون في سهل الأردين (Ardennes)، تخلف في مدريد عند نهاية حرب خلافة عرش إسبانيا، حيث كان قد أدى خدمته العسكرية تحت راية سادة بوركونيْ النبلاء. كان هذا الأب قد استقر منذ عدة سنوات في حاضرة الملك فيليب الخامس ضابطا في الحرس الوالوني عندما تزوج امرأة شابة من مدينة غرناطة، وتنحدر من أصول ملوك هذه المدينة القدامى، يعني أنها من أصل قديم من سلالة المغاربة والعرب المهاجرين قبل ذلك. وبعد زواجها بقليل سيتجه والدا ألفونص فيما بعد نحو إقطاعية ووردن، لأنه كان ينبغي استعادة إقطاعية العائلة التي تُركت لحالها بعد الموت المفاجىء للأخ الأكبر. غادرا مدريد وقد وقع اختيارهما على طريق برية ستقودهما إلى ووردن عن طريق كاطالونيا (Catalogne)، بربنيان (Perpignan)، ليون (Lyon)، ثم باريس. وتسعة شهور، بعد وصول الزوجين إلى قصر وُرزدِن، تسعة شهور يوما بعد يوم،

كما يشدد السارد على تأكيد ذلك، سيولد ألفونص.

أما تهذيب وتربية الفتى الشاب فسيكون محيطها هو منطقة الفلاندر (Flandres)، كما كانت في السابق بالطبع: شبَا، تورني (Tournai)، ثم العودة إلى قصر ووزدِنْ. وعندما آن الأوان كي يعتمد الشاب على نفسه ويجرب، تمكن أبوه من تحصيل خدمة له برتبة نقيب في الحرس الوالوني الشهير، وفي هذه الخدمة تألق هذا الشاب ذاته ولقي الاستحسان. عليه بعد ذلك، إذن، أن يذهب إلى إسبانيا، بلد أصوله الذي لم يكن يعرفه هذا الفتى الشاب إلا عن طريق شهادات الوسط العائلي ثم عن طريق الكتب أيضا. وبناء على قرار الأب الذي لا يناقش ولا يجادل حتى، أو يعلَّق عليه، سيرحل الشاب عن طريق البحر. سيبحر إلى ميناء فليسينج في هولاندة على سفينة تتجه نحو قادس، ومن هناك سيتجه نحو مدريد عبر إشبيلية، قرطبة ثم السييرا مورينا الشهيرة، وفي نهاية الأيام الستة والستين لإقامته غير المرتقبة الطارئة، سيتمكن ألفونص، في نهاية السفر، من نيل مُراده والوصول إلى مدريد، حيث كان عليه أن يؤدي خدمته العسكرية بنجاح باهر سيتوج، عشرين سنة بعد ذلك، بلقب حاكم سرقسطة. وفي هذه المدينة بالذات - كما يروي ذلك بنفسه في خاتمة حكايته - سيودِعُ ألفونص المخطوط الذي يحكي فيه عن الأيام الستة والستين من مغامراته في جبال السييرا مورينا ؛ وفيها أيضا - كما يحيطنا علما بذلك استهلال الرواية - كان على ضابط فرنسي أن يلتقي به وسط أحداث حصار المدينة المفاجئة من طرف أجناد نابليون سنة 1809. وهذا هو أصل عنوان الرواية التي تبدأ، كما يبدو، بنهاية قصة المخطوط. إنها الدائرة تنغلق منذ صفحة الكتاب الأولى.

إن هذا التوضيح الذي لم يكن ربما سوى تذكير مُمِلٍ بالنسبة لمن يعرفون «المخطوط الذي عثر عليه في سرقسطة»، عليه أن يلزمنا، مع ذلك، بقراءة الخريطة الجغرافية على ضوء مقاييس لا تحتاج إلى البرهنة، وهي المقاييس التي تعيد إنتاج صورة الدائرة على الخريطة. فنحن نشاهد أن ألفونص، وهو يأتي ليتابع مهنة أبيه ويواصلها في إسبانيا، يجيء كذلك ليغلق دائرة الرحلة.

فالقسم الخطّي الذي كان ينبغي أن يقوده من قادس إلى مدريد، متقدما عبر السييرا مورينا، ليس في نهاية الأمر سوى جزء صغير من قطر هذه الدائرة الذي يشمل الكل في نفس الوقت، يشمل الإقليم الجنوبي ويشمل أيضا المنطقة الشمالية من مملكة إسبانيا، كما يشمل الأجيال وكل حقب التاريخ.

هذا الجزء، والحالة هذه، هو الذي يشكل جوهر الرواية، لذلك نرى أنه حان الأوان لتوجيه اهتمامنا نحو ما كان يجري أثناء السفر في ذلك الفضاء الذي كان سِرفانْطيس قد أقامه في شكل ذهاب وإياب أبديَّيْن. وكانت تجربة ألفونص الأولى التي عاشها، وقد عرضت له، هي تجربة ازدواجية الواقع الفيزيائي (الطبيعي). فما كان يراه ويشاهده، للوهلة الأولى، في هذا الصقع الخالي، هو الإهمال والخراب اللذان يحتشدان ويتجسدان في نزل فينتا كيماذا (Fuente Quemada)، حيث كان ملزما بأن يتوقف قليلا بعد أن تخلى عنه خدامه وفقد، نتيجة ذلك، كل ما كان يتوفر لديه من زاد ومؤونة. وهذا النزل يذكِّر، بالطبع، بالنزل الذي نصبه سرفانطيس أيضا في مدخل السييرا مورينا، غير أن ألفونص يخبرنا بأن الأمر يتعلق بقصر عتيق من القصور العربية التي شيدها المغاربة في غابر الدهر وتحول إلى مركز للضيافة واستقبال الرحالة والمسافرين. وهكذا نرى أن إسبانيا التي استعادها الملوك الكاثوليكيون بالقوة من يد العرب المسلمين قد احتفظت، كما سيؤكد ذلك مشهد من مشاهد محاكم التفتيش، بآثار ماضيها العربي رغم كل شيء، وهذا هو ما يبذل السارد من أجله كل جهده ليحدثنا به منذ البداية على أي حال.

وما إن تطأ قدما ألفونص هذا النزل المذكور حتى يتأكد أمام أعيننا ذلك التحديد المضاعف. فهذا النزل الذي يشبه كوخا قذرا وقد أهمله صاحبه نفسه، يكشف، ما إن يحل منتصف الليل، عن بُعد عجائبي، ينفتح في سراديب القبو ويقاد إليه ألفونص من طرف كائنات غريبة، وهناك يتعرف على امرأتين في مقتبل العمر جميلتين غاية الجمال تؤكدان له أنهما إبنتا عمومة أرخؤولة له، وعلينا أن نبحث عن هذه الرابطة الدموية من جهة نسب أم البطل، وليدة غرناطة. ويعلم

ألفونص، في نفس الوقت، أن دماء عربية من أصل فاتحي الأندلس تجري في عروقه، عروق ضابط الملك الكاثوليكي الذي كانه أبوه ويكونه هو أيضا. أما عالم سراديب القبو فإنه ينبسط أمامه تبعا لما يعرفه هو أصلا وهو يجعله يكتشف مظهرا خفيا من مظاهر حياته وسيرته لم يسبق له أن تشكك فيه حول هُويته الخاصة، مثلما هو ثراء وتعقد الممرات التي تخترق جوف السييرا مورينا، وتظل مجهولة لا يدركها المسافر المتسكع في واضحة النهار. وهكذا يعلم ألفونص أن عالما آخر يوجد سريا تحت عالمنا، وأن دما آخر يجري في دمه هو، كما سيعلم أيضا أن السييرا مورينا ستكون هي المكان الذي يرغب فيه ذلك العالمَ أن يستحوذ على شخصه مقابل سر سيُعهد به إليه.

إن السيرّا مورينا، في رواية سرفانطيس التي تُوِّجَت كأول رواية حديثة في الغرب، هي المكان الذي يختبر فيه دون كيشوت قدراته ويصوغ نظريا ما يسميه الواقع السحري، أي تضليل الواقع الذي ينبغي ترجمة كل معطياته على ضوء ما كان مدونا في الكتب. وأول اختبار سيعرّض بوتوكي بطلا له يندرج طبعا في استمرار هذا الحافز واسترساله. فالكاتب لا يجعل شخصية بطله تكتشف العالم الآخر الذي يوجد داخله وفي أعماقه، بل إنه ينبه القارئ إلى أنه سيقرأ رواية على رواية، أي أنه سيقرأ رواية تصف طرائف واشتراطات ذهاب وإياب بين عالم السطح وعالم القبو، بين عالم الأشياء وعالم الكلمات، بين الواقع والخيال، بين نفس الشيء وسواه. وفي شخصية ألفونص يُقبل كل شيء، كما ابتكر ذلك بوتوكي، ليتجسد داخله(ها) مجتمعا : عوالم متنافرة، حتى حكمنا على ذلك من خلال كراهية الإسباني التي لاحظها المسافر في المغرب، ديانات، أنظمة سياسية ونُظم زواج متباينة، أشكال أدبية (رواية، حكاية خرافية)، كلها عرف الكاتب بوتوكي كيف يقيس خصوصياتها واحتمالاتها كلًّا على حدة.

إن إسبانيا التي ينطوي عليها «المخطوط الذي عثر عليه في سرقسطة» هي شيء آخر غير ذلك التذكير البسيط بها، أو ذلك الامتداد للإرث الشطاري، إنها لاشك تلك التي كان يفكر فيها بوتوكي بالتأكيد عندما كان يتحدث عن الروايات الإسبانية، وذلك لأننا لسنا في مواجهة قصة رِحْلة يشرح فيها فاعل السرد أو يفسر الواقع الفيزيائي أو الثقافي، ولا نحن في غمرة تجول مجازي بهذا الشكل أو ذلك، يطبعه تتابع محطات ومراحل تجلب هذا القدر الوفير من تجارب الحياة لصاحبها في العالم. إننا، عوض ذلك، أمام عمل فني عماده الإبداع، ونواجه رواية تمد أحداثها أمام البطل وتبسط أمام خطواته فضاء تراكب فيه القصة ثقافتين، ثقافة مسيحية وثقافة إسلامية، تتنازعان أو تتقاسمان حوض البحر الأبيض المتوسط. وسيكون في مُكْنَة مغامرة ألفونص أن تُقارَنَ وتُشبَّه بمغامرة باحث حفريات يتوجه لاكتشاف وقياس الطبقات المتخثّرة في الحضارات المتعاقبة. غير أن هذه المغامرة هنا ليست مخيّرة، فهي موجّهة ؛ إذ أن الشخصية تنطلق من أراضيها في الشمال، من محافظة بويّون، وهو نفس المكان الذي كانت فيه إقطاعية الفارس غُودْفَرْوا (Godefroy)، بطل الحرب الصليبية الأولى، قبل أن تصعد من إسبانبا في الجنوب انطلاقا من مدينة قادس، مروراً بأراضي مملكة غرناطة القديمة، أي أراضي أجداد أمها، بلد الزخرفة العربية وتخطيطات ابن السراج، لكي تصل في النهاية إلى سرقسطة، المدينة الرومانية العتيقة، نقطة العبور، في جنوب جبال البرانس (Pyrénes)، بالنسبة إلى ما كان عليه التدبير الملكي. وفي هذه المدينة بالذات سيعثر ضابط كان في خدمة نابليون على حكاية المخطوط لهذه القصة التي أخفاها مؤلفها في علبة حديدية صغيرة منذ نصف قرن قبل ذلك. وليس من اللاَّمبالاة في شيء أن تستحضر هذه الحلقة العسكرية التي جرت في مدينة سرقسطة (Saragosse) سنة 1809، أي بعد الحملة الظاهرة لنابليون على مصر، لأننا نعرف جيدا أن هذه الحملة بالذات هي التي ستكون سببا في تجديد الدراسات الاستشراقية في فرنسا وتشييد أسطورة الشرق في أدب هذا البلد.

لكن ماذا يروي لنا هذا المخطوط ؟ ماذا فعل ألفونص وُوردِنْ، وماذا كان بمقدوره أن يفعل، في ذلك الصقع الخالي خلال ستة وستين يوما ؟ يمكن أن نجيب بطريقة مقتضبة أشد الاقتضاب بالقول أن ألفونص

التقى، ببساطة، مع الناس، وأنه قرأ كتبا واستمع إلى قصص، وبعد ذلك عزم على كتابة كل ما رأى وكل ما سمع : إنها إذن قصة بيداء تعمر، بحضور ألفونص، بعدد لانهائي من الشخوص، كل واحد فيها مهيأ وحامل لقصة يريد أن يرويها، وكل قصة، بدورها، مرشحة لحملنا والتحليق بنا في عالم جديد، سواء كان عالما جغرافيا أو دينيا، فلسفيا، علميا أو أدبيا، أو كل هذه العوالم مشتركة ومجتمعة. أما السيرا مورينا فقد تبين أنها مكان للإقبال والتجمع واللقاء من كل حدب وصوب، وفي نفس الوقت، محل لانطلاق الحملات والبعثات وكل تقلبات الرحالة والمسافرين في حيواتهم، ثم مكان لاحتشاد النصوص، لأن كل حياة هي نص، حسب المنطق الذي رسخته الشخوص التي أطلق عليها تودوروف (Todorov) إسم «الكائنات-القَصص»[5]. غير أن ألفونص سيعلم أيضا أن هذه العبارة الأخيرة، كما يحق لنا أن نقدّر، يمكن أن تنقلب على عكسها، وأن كل نص هو حياةٌ بالقوة، حياة شخصية جديدة تُروى، حياته هو مثلا.

بالفعل، بدأ بطلنا يلتقي بشخوص بدت له حينئذ كما لو كانت مضاعِفة له هو ذاته، لأنها تقول له وتخبره أنها عاشت في السيرا مورينا نفس المغامرات ؛ أو عاشت، بعبارة أخرى، نفس المغامرات المزعجة التي عاشها هو أيضا : نتقدم في ذلك البلد المجهول والموحش الذي لا يرحب بأحد ولا يستضيفه، نتوقف عند نزل فينتا كيماذا، نُرغم على اقتراف أشياء لا نقبلها أو أخطاء من كل نوع، ونستيقظ في الغد أسفل مشنقة حيث توجد جثتا مصلوبين تتفسّخان. هل هو عقاب واقتصاص، أم هو عمل من أعمال السحر والشعوذة ؟

سيستمع ألفونص إلى نفس القصة تُروى أربع مرات بأفواه مختلفة بعد أن عاش هو نفسه نفس الأحداث تطرأ وتتغير فجأة، وحينئذ يحل الشك محل اليقين، يحل الشك الذي يطال ناموس العالم الذي ينتمي إليه ويوجد فيه بقدر ما يطال درجة صدق الأحاديث التي يوجهها إليه من يلتقي بهم من هؤلاء الناس. أسوأ من ذلك، ها هو يستقبل في قصر ويُستدرج إليه، وفيه يعثر داخل المكتبة على كتب قديمة جدا تروي نفس القصة. ويصير السؤال، بالنسبة إلى ألفونص، هو أن يعرف إن لم يكن قد جيء به فقط من أجل أن يُرهن مثل ذلك القالب النموذجي المتعارف عليه في الأدب المثالي الموروث منذ القدم ؛ أو هو ضحية مؤامرة تهدف إلى جعله يحيا مثل تلك المشاهد المتفق عليها في السر وقبل ذلك، بدقة متناهية ومتواطأ عليها. أليست حياتي سوى تنفيذ لمخطط مكتوب جاهز سلفا، أو أنني غارق، بشكل مدبر من طرف جهة لا أعلمها في حبكة جاهزة ؟ ذلكم هو السؤال الذي يطرح عليه، ويطرحه أيضا من يحيط به من الشخوص الثانوية.

إن مثل هذا السؤال، أو هذين السؤالين وغيرهما، كما نلاحظ ذلك بوضوح، لا علاقة له ولا يشترك في شيء مع الفضاء الجغرافي الخاص الذي يطرح فيه، أو تطرح فيه بقية الأسئلة وإن كانت السيرا مورينا توفر إطارا مفضلا ومهيئا لذلك - كما هو مبرهن بوضوح - ولكل أسئلة الكينونة التي يغذيها القلق والتهيّب. ولما كان الفضاء يتحكم فيه نظام التجديد، فإننا لا نستغرب هجمة قاطع طريق صِقِلي، بدون حرج في عزلة الجبال الإسبانية، يأتي بدوره ليروي حياته وأعماله الباهرة التي قام بها. وسواء تعلق الأمر بفجاج صقلية أو كالابْريا (Calabre)، أو تضرّسات الأرض في قمم جبال الأطلس، أو شعاب السيرا مورينا، فإن كل ذلك مهيأ بالتساوي كي يستضيف أي نوع من أنواع الجرائم وأشكال الجُنح، أو أي شيء يحدث في سرية تامة : إنه ميدان اللصوص وقطاع الطرق والمهربين، أولئك الذين لن يتأخر ألفونص في اللقاء بهم بالتحديد.

وها هو ذا، بعد عشرة أيام من المفاجآت، تتبناه فرقة من الغجر الذين وجدوا، في تلك الجبال، ملاذاً لهم، يعيشون فيه على التهريب. وهي فرقة تتنقل دائما في نفس المنطقة، حول النزل والقصر، في هذا الاتجاه تارة، وتارة أخرى في اتجاه آخر، بحسب ما يأمر به من معهم من الحمقى والمجانين، أو ما يرتئيه مفوضو الشرطة الذين يوهمون بالحراسة الليلية، وعلى من يراهم أن يوهم بدوره بتجنبهم وتجنب ملاقاتهم. ويسير ألفونص على نفس الإيقاع : الارتحال مع تباشير الصباح والتسكع والدوران بدون هدف محدد، أي على من يختلط بهم أن

يؤمن بقانون التسكع آناء النهار والتوقف من جديد عند حلول المساء لتمضية الليل بعد نصب الخيام، ثم للكلام، بصفة خاصة، وتبادل القصص، الاستماع إلى هذا أو ذلك من القادمين الجدد. وفي هذا الارتحال والاستقرار يحمل هؤلاء معهم رُزما طيلة النهار، أما في الليل فإنهم يحطون أثقالهم ويروون القصص ويتبادلونها، بعضهم صور للبعض الآخر والعكس : هذا أمر لا يُرد ولا جدال فيه لما كانت بلاد اللصوص والمهربين، كما هي البحار يعيث فيها القراصنة فساداً، هي أيضا بلاد حكايات القراصنة والمهربين وقطاع الطرق، وهذا ما يعرفه الجميع.

هكذا إذن سيكون معسكر الغجر مكانا تحل فيه قصص الأحداث محل الأحداث، وسيعيش ألفونص بالتدريج، حياة بدون مغامرات ليستمع أكثر إلى مغامرات على ألسنة الرواة، مغامرات من صنف ثالث تحمله بعيداً عن «السلسلة المقوسة التي تفصل بين بلاد الأندلس والمضيق»، ولأن فرقة الغجر تتنقل دون أن تتقدم إلى الأمام، أو تدور في نفس المكان، بالضبط، في ذلك الفضاء المعزول من السيرّا مورينا، وهي تعيد إنتاج نفس الصورة التي رسمها آل وُوردن، في تلك البادية الموحشة، بين إسبانيا وهولندة ؛ فإن الرواة المتتابعين يقودوننا، في رفقة ألفونص، المستمع المفضل إليهم ولديهم، إلى أماكن مختلفة، بل يقودوننا إلى أزمنة متباينة. ولذلك فإننا نستطيع أن نقيم مدوّنة، بالنسبة للمدن والبلدان التي عبرتها الشخوص، تجمع بشكل وافٍ كل ذلك وتشبه إلى حد بعيد ما كان يأتي به فرانسوا رابليه (François Rabelais) من استقراءات وإحصاءات متسلسلة أو تشبه سجلات جورج بيريك (Georges Perec)، وتشبه أيضا فهرسة «المخطوط الذي عثر عليه في سرقسطة» ذاتها، تلك الفهرسة التي تُقدم، عندما نُدمجُها في تسلسل تعاقب الستة وستين يوما، ركاما مكدسا من القصص بشكل تتماثل فيه مع نموذج واحد يتكرر، ويطلق عليها «قصة فلان أو قصة فلانة»، أو تتمة «قصة فلان أو قصة فلانة».

ولكي نلخص هذه المدونة ونربطها بما هو جوهري يمكننا القول بأننا نجد فيها، تقريبا، كل المدن التي كانت على جانب من الأهمية في تاريخ إسبانيا السياسي والثقافي وفي تاريخ مملكتي صقلية الأولى والثانية، وتاريخ روما، وتاريخ فيراري (Ferrara) ورافين (Ravenne) في الشمال، إلى جانب تاريخ فرنسا، من خلال مدينة ليون في عصر نهضتها، وقصر فيرساي على عهد الملك لويس الرابع عشر، ثم تاريخ البرتغال وتاريخ جزيرة مالطة واليونان القديم والمكسيك الجديد، وتاريخ لُندرة والنمسا مع هولندة، ونعثر أيضا – انطلاقا من مدينة غرناطة – على تاريخ هذه المدينة الإسبانية التي احتفظت بأصول العالم العربي، كما نعثر على تاريخ مدينة سبتة حيث ستلقي السيطرة الإسبانية بمرساتها على الساحل الأفريقي وتتوطد. توجد، إذن، كل البلدان التي كانت تشكل أرض النبي، أي العالم الإسلامي، من المغرب إلى فارس، مروراً بالمشرق حيث سيتبدّى الإرث اليهودي. وبين ثنايا هذه المواقع توجد الطرق والسبل أو البحار التي ينبغي اختراقها بمعية رحالة لا غنى عنهم للربط والاتصال كما يعبر المثل الإسباني عن ذلك. : «يتولد الطريق عندما نمشي فيه»، كما أن السير هو الذي يخلع على الطريق معناه، على أننا، حتى إذا قدّرنا خريطة ما حق تقديرها، باعتبارها الوسيلة الأخرى للمّ شعث الفضاء في أفق منحه إمكان المقروئية، بل إمكان منحه معنى، نلاحظ أن تنقّلات شخصيات هذه الرواية تأتي لتشكل، إضافة إلى الانفتاح على العالم الجديد، خريطة الإمبراطورية الرومانية في عهد أدْريان (Adrien)، ذلك الإمبراطور الذي سيلقب بـ«الإسباني»، لأنه وُلد في إيتاليكا (Italica)، على مقربة من مدينة إشبيلية، أي عند أسفل السيرّا مُورينا. هذا الفضاء هو «البحر المشترك»، ليس لأنه يندمج مع قوة الإقناع بشراسة الصقور الملكية، ولا بدافع من التماثل المفروض إداريا أو بسبب تشريع قانوني، بل على يد روائي يبحث، بواسطة وسائل فنه الخاصة، عن صيغة لإعادة بناء وحدة مفقودة. ولهذه الغاية سيجعل من السيرّا مورينا، الفضاء الدّارس الذي ينتظر من يحل به، محلاً يلتقي فيه ما لا نهاية له من الكلمات التي تزرع الحياة في كل هذه الموروثات والأديان والفلسفات والقوانين والشرائع واللغات، ثم الكتب المنزلة والكتب الدنيوية أيضا، إلى

جانب الأساطير والخرافات والقصص. إنه الفضاء الذي يجتمع فيه وينتشر، بجانب خريطة البحر الأبيض المتوسط، في نفس الوقت، كل ذلك الحشد من الثقافات في صيغة لَفَّة واحدة كبيرة، وكل ذلك الزخم من الحضارات التي تطورت بموازاتها في عدة أشكال متنوعة في حرم هذا الحوض الذي كاد أن يتخذ صورة دائرة أو ما شاكلها.

لقد كان لدى بوتوكي ما يكفي من متسع الوقت، أثناء سفره إلى المغرب، كي يقيس مقدار الاختلاف بين الذهنيات كما يتكشَّف ذلك في كيفية التوصل إلى معرفة علماء أوروبا وعلماء ضفة البحر الأبيض المتوسط من جهة الشمال، ثم لدى حكماء كانت تغذيهم الثقافة العبرية والعربية. وسيكون لقاء بوتوكي مع حبر يهودي لقاءً موحياً في هذا الشأن حيث يقول عن ذلك : «علاوة على تبحره وإحاطته في العلم الرباني اليهودي كان على معرفة عميقة بفلسفة أريسطو التي كان كَلِفا بها ومتحمسا لها. وقد سألني هذا الحبر اليهودي - يتابع بوتوكي - عن فقهائنا ومدى إطلاعهم ودأبهم في هذا الأمر، فأجبته بأننا، في أوروبا، تركنا منذ زمن بعيد الخوض في مثل هذه المسائل الدقيقة وتعاطينا التجارب في علوم سواها، كما أهملنا التعليلات وقصدنا إتقان الآلات. كما شرحت له بعض تجارب الضوء وتجارب حول موجودات دقيقة من فصيلة الحيوان، كما شرحت له استعمال النواقل، وغير ذلك. كان يستمع إلي بإعجاب ممتزج بالكآبة والحسرة، ولم أجد غير أن أرثي لذلك الشيخ المسن الذي أتى، في أمور لا فائدة منها، على قوته الفكرية التي كانت كافية، لو كان في أوروبا، لتجعل منه عالما شهيرا» (ص 177). وعند مغادرته المغرب سيشد بوتوكي الأوروبي الرحال إلى ميناء مدينة قادس التي كانت منتهى وصوله والتي ستصير، في الرواية التي لم تكن كُتبت بعد، في تلك اللحظة، نقطة انطلاق مغامرات ألفونص فان ووردن، إلا أن الرحالة الفعلي لا يأتي من جهة الشمال، كما هو الأمر بالنسبة إلى الشخصية المتخيلة في الرواية مستقبلا : إنه سيعبر، في يوم قصير، مضيق جبل طارق الذي سيوحي له بهذه الملحوظة : «لا أعتقد أنه يوجد فيما تبقى من المعمور ممر بهذا القصر بين نمطين مختلفين إلى حد يصعب التعبير عن ذلك بطريقة حاسمة» (309).

يقدم «المخطوط الذي عثر عليه في سرقسطة» نفسه، من منظور جغرافي، كأنه امتداد وتكملة متخيلة لسفر حقيقي ويفعل ذلك بإحكام، وهو السفر الذي تمكن من خلاله بوتوكي أن يقيس مقدار تأثير ثم زيف الأحكام المسبقة في أوروبا حول العالم العربي، بقدر تمكنه من قياس واقع الاختلافات. وسنوات عديدة بعد تجاربه في السفر، غداة التقسيم النهائي لبولونيا، عندما سيتساءل بصدد انزلاقات ورجّات الثورة الفرنسية، لن يكون لبوتوكي نفس اليقين فيما يتعلق بقيمة ووجاهة العقلانية الأوروبية، ولهذا سيكتب هذه الرواية، في متسع من وقت طويل، وفيها يبدو جبل طارق ليس مجرد مكان رمزي لتوقف اضطراري جذري. بل هو مجال يتشكل فيه، داخل جبال السييرّا مورينا الموحشة والأسطورية، عالم متوسطي غني باختلافاته. هذا العالم، بداهة، هو عالم قائم على الاتفاق والمصادفة، لأنه موضوع تحت كفالة، ولا يصدر عن بناء تخيلي، بل إنه، فوق ذلك، لا يوجد داخل هذا التخيل إلا عن طريق سلطة تستثير القول الذي يُدلي به كل أولئك الذي يشاهدونه. إن ألفونص يدور في حلقة مفرغة طيلة ستة وستين يوماً، والعالم الذي يعرض له أمامه، علاوة على مملكة غُومِليزْ تحت الأرض التي يراها تتشعب تحت قدميه، عالم يمتد إلى أبعد من ذلك حول هذا البحر الموسوم بأنه بحر الجميع في اتجاه عالم جديد بفضل من هم موجودون هناك وهم يستحضرونه عن طريق الكلام. على أن هذا العالم، لما كان عالم قولٍ، عالم محكيات وكتب بالتحديد، فهذا ما يجعله قادراً على إبراز هذا التجانس، بل المطالبة به وإن كانت تجربة العالم الفعلي تأتي، رغم ذلك، لتخالف هذا المعطى في أي مكان، ويكفي عبور مضيق جبل طارق، حسب المؤلف، للتأكد من ذلك، إنما علينا أن نعود إلى الروائي وإلى أثره الفني ولنعمل بجدية على فهم وإدراك سند هذا التجانس. ما الذي يؤسسه وما الذي يبرره ؟

بإمكاننا أن نقرأ «المخطوط الذي عثر عليه في سرقسطة» مع الميل إلى التأويل المتشائم الذي تقترحه فوراً

نهاية حياة المؤلف وانتحاره. وسنكون، من هذه الزاوية، مدفوعين إلى تقرير كل الاختلافات والتفاريق، بل كل المعتقدات وكل أشكال اليقين قائمة وتوجد مجتمعة، بشكل أكيد، متجانس ومتساو، لكن ذلك سيكون وفق معاينة عامة محكومة بالبطلان، فكل اعتقاد راسخ اعتقاد لا يُجدي، ذلك أن كل خطاب، عندما نعرض هذا الاعتقاد على اعتقاد آخر سواه، لن يكون سوى خطاب من الخطابات الممكنة، وكل شريعة قابلة للدحض لأن مسوغاتها تظل نسبية، ينسحب هذا على مغامرات ألفونص التي تُروى، رغم أنها مغامرات غير عادية وغريبة، من طرف شخوص وكأنها مغامراتهم. غير أننا، من جانب آخر أيضا، نستطيع قراءة هذه الرواية ونحن نتبع مقياس التفاؤل، تفاؤل ساذج وسليم النية، هذا أكيد، لكنه تفاؤل قابل للتبرير، وحينئذ يبدو بوتوكي، مثل شيخ مملكة غومليز الذي تحيط به كل الشخوص آخر يوم من الأيام الستة والستين، أو مثل نقطة تقاطع والتقاء وإجماع، أي الترهين المركزي الذي يُوَحِّد بين الجميع لأنه يوحي بالتسامح السخي، يوحي باحترام كل الاختلافات كما يوحي بروح الترحيب والاقتسام. وسواء اعتبرنا بوتوكي داعية لفكرة الإيمان بالآخر أو مشعوذا انهزاميا يأتي بعد الحداثة، فإن هذه القراءة أو تلك تقدمان لنا بوتوكي على هواه وسجيته، أو بوتوكي «نهاية القرن» كما كان هو نفسه إبنا لنهاية القرن منذ مائتي سنة خلت. والحالة هذه أستسمحكم في القول بأن كلاً من هذا التأويل الأول أو التأويل الثاني لن يقنعا بما فيه الكفاية الذين يصرّون على رغبة التمييز بين الواقع والتخيل، بين عالم البشر وعالم الشخوص، بين حياة المؤلفين وأعمالهم.

لا يُخفي بوتوكي، في أخبار رحلاته، اقتناعه بأن اكتشاف المجال لا ينفصل عن الملاحظات التي تمس، في نفس الآن، التاريخ الجيولوجي والسياسي وتمس التاريخ الثقافي دفعة واحدة، كما تمس العادات وأنماط تنظيم المجتمعات والسلوك، بقدر ما تمس البنية التحتية ومظاهر العملية الاقتصادية. وهكذا فبوتوكي هو في نفس الوقت عالم حفريات ومؤرخ وعالم أنساب وسلالات، ويكاد يكون عالم اجتماع في أواخر أيامه، وينقل في روايته كل هذا التعدد من الوسائل ووجهات النظر داخل المجال الأدبي ؛ ويجعل من كل ذلك مادة يستجيب لها الفضاء شأنه في ذلك شأن أي تقليد أدبي موروث (الرواية الإسبانية بزعامة سرفانطيس، الحكاية الخرافية العربية كما يشخصها نموذج ألف ليلة وليلة)، وهو التقليد الذي قد يكون مقبولا ومناسبا العمل على السير فيه قدما وإن تطلب ذلك تمريره عن طريق القلب وتحويل نظام النص إلى نمط آخر من الكتابة. وهو هنا نوع من القوالب الجاهزة التي ينبغي تحيينها، إلى جانب صور مجازية وتراكيب بيانية على مستوى البلاغة والأسلوب إلى حد التحريف والمحاكاة الساخرة، كما قد يكون نماذج من كل صنف. فالمحكي، أي محكي، هو قول ينبغي تعهده بالمِراس قبل كل شيء. وعندما يتعلق الأمر بضمير متكلم «أنا» لرحالة يتحدث ويقول، فإن القول يتنقل مع الرحالة، لكنه يظل قولاً في مِلك نفس الذات القائلة دائما. ويستطيع القول، في الرواية، أن ينتقل من ذات قائلة إلى أخرى، من فاعل قول إلى آخر بالمعنى التلفظي والتداولي، أي من شخصية-قائلة (تتكلم) إلى شخصية-قائلة (تتكلم)، شريطة أن تنبثق بنية لتنظيم هذا التداول. وبما أن الأمر لا يمكن أن يتعلق بالبنية التي يفرضها المسار المتبع، كما هو الشأن في حالة سفر داخل العالم الفعلي، عن طريق توالٍ جغرافي للسفر، فإن على النص أن يوفر نظاما لهذا القول المتعدد في تزايد مستمر، نظام يتعلق ببنية الرواية السردية. وهذه البنية، في هذا السياق، بنية معقدة، لكنها بنية متماسكة، بحيث نستطيع تمثيلها بواسطة ترسيمات أو رسوم وتخطيطات بيانية مستوحاة من عدة أصول كما لو أن الأمر سيتعلّق بوضع خريطة لجغرافية خاصة يكون هدفها وتكون الغاية منها وصف الفضاء السردي الذي يتحرك فيه القول.

يقدم «المخطوط الذي عثر عليه في سرقسطة»، بعيدا ما أمكن وخارج كل المسرات والمآسي التي تطبع وجود البشر والكتاب، عالما متسقا وقابلا للمقروئية وإن كان، في نفس الوقت، عالما موسوما بالغزارة والتعقّد. ويستمد هذا العالم مقروئيته من استقلاله الذاتي المخوّل تجاه حقائق الكينونة وصروف التاريخ. من أين يأتي هذا

الاستقلال الذاتي وما الذي يضمنها ؟ إنه حضور الوساطة حضورا كليا. وتتم استحضارات العالم الفعلي داخل الرواية، سواء أكان حاضرا أم ماضيا، قريبا أم بعيدا، عن طريق وساطة الخطاب البينة الكاشفة أو المقنعة المتوارية : إنها نصوص تُقرأ و أقول تُروى. وتلك هي مكتبة العالم المتوسطي التي يشيّد الكاتب صورتها من جديد باستخدام كَمّ من طرائق الكتابة والتأليف، وكمّ من التشكلات الرمزية والأنماط، النماذج والأجناس، كمّ من سنن الكتابة من كل صنف، كلها مجلوبة ومحتفظ بها داخل هذه المكتبة ذاتها. يكفي لإثبات هذا تحليل موضوع الكتاب الذي يتمظهر دون توقف داخل الرواية وقد اتخذ عددا متنوعا من الأشكال. وحينئذ ندرك جيدا معنى الانعطاف نحو السييرّا مُورينا، الفضاء الأدبي الذي لا يضاهيه فضاء آخر على امتداد الستة والستين «يوما». ولو كنت أملك ما يكفي من الوقت اللازم، لكنت بينت لكم أن اختيار سرقسطة، في هذا الشأن، لحفظ واكتشاف هذا المخطوط الشهير، يعود مصدره إلى نفس التقليد الذي أقامته رواية سرفانطيس العظيمة[6].

إن اقتفاء أثر المعنى في عالم الكتب والعلامات لا يمكن أن ينتهي أبدا، لذلك سيستمر البحث عن المعنى ستة وستين يوما، ردح من زمن يُقاس برقم يمثل تكرار توليفات أبدية لرقمي (2) و(3)، التكرار الأبدي وكفى، ذلك أنه لا يوجد دائما معنى واحد، والسييرّا مُورينا واقعية وأسطورية في نفس الوقت، ونهر الوادي الكبير (Guadalquivir) نهر مرسوم السير على الخريطة بوضوح، مجراه تحت الأرض ومتقلب الأطوار تارة، وتارة أخرى مهيب مفتوح على السماء. إن السرداب هو مملكة آل غُوملِيز، لكننا ندرك أن غُومِليز تعني، في لهجة الطرادلة، الجبل. ونستطيع أن نضاعف أمثلة الموضوعات التي تتم فيها مراكبة طبقات الدلالة ومراكبة طبقات التعدد وانفجار المعنى.

هكذا تنصرف جغرافية المخطوط الذي عثر عليه في سرقسطة وتميل لتغترف من تشكيلة أوسع بكثير من تلك التي تقترحها «الموسوعة» الأنسكلوبيديا على القراء في مقالة «جغرافيا» الموقعة من طرف جان إيتيان دياري (Jean-Etienne de Marie). والجغرافيا، حسب «قاموس العلوم والفنون والصنائع» علم يتفرع إلى جغرافيا طبيعية، وجغرافيا تاريخية، وجغرافيا مدنية أو سياسية، جغرافيا مقدسة، جغرافيا كَنسية، جغرافيا فيزيائية. واضح أن كل هذه العلوم الفرعية قد مارسها بوتوكي أو اختلطت عليه في روايته، لكنه ينبغي أن نضيف إليها على الأقل جغرافيا يمكن أن ننعتها «الجغرافيا الرمزية»، هي جغرافية الكتب، بل جغرافيا أخرى، كما يقترح ذلك بعض المفكرين المعاصرين، هي «الجغرافيا الذهنية» (العقلية).

كل فرع من فروع هذه الجغرافيا يمكن أن يثير، في ذهن القارئ، صورة خريطة خاصة. وقد كتب كريستيان جاكوب (Christian Jacob)، منذ وقت قريب، في كتابه الشيق حول «امبراطورية الخرائط» : «يوجد، في أُسّ الخريطة، ربط وتوليف وصلة بصرية يقيمها الذهن وبفضل ذلك يمكن أن تتشرب العديد من العناصر داخل البنية الموحدة لكل ذلك»[7]. لقد كان بوتوكي يعلم هذا جيدا، كما كان يعرف أيضا فائدة الخرائط ويعرف محتملها المشكوك فيه والمتفق عليه كما تشهد على ذلك تلك السطور من رحلته إلى المغرب حيث يزعم هذا البولوني أنه أثار دهشة المغاربة بمعرفته الجيدة بالبلد وبكونه كان يسافر مصحوبا بخريطة المغرب - المغلوطة، دون شك، كما سيتأكد هو نفسه من ذلك - التي وضعها الجغرافي الألماني هوُمانْ، غير أننا نجد مقطعاً في رحلة إلى المغرب ذا مغزى بالنسبة إلينا، ففيه يعترف مؤلفنا بأنه حلم بـ«الصعود إلى قمة أعلى هرم، ومنه كان بإمكاني - يقول بوتوكي - أن أرى مصر كلها تمتد أمام رجليَّ كما لو كانت تمتد على خريطة جغرافية» (ص97). ومن خلال هذا المقطع نفكر حتما في ذلك المشهد الرئيس من «المخطوط الذي عثر عليه في سرقسطة» والذي ذكرته فيما سبق، وفيه نشاهد ألفونص يتسلق أعلى قمة في الضواحي ليرى بأم عينه ما يحدث ويتأمل المنظر اليباب واللاّنهائي للسييرّا مُورينا، وكأننا بالبطل-السارد يرتفع إلى أعلى ليتأمل مسرح ما كان سيحدث طيلة ستة وستين يوما بهدف أن يستبطن هذا المنظر «الذي يمتد أمام قدميه كما يمتد على خريطة جغرافية».

الإرتفاع إلى أعلى واستجلاء الأفق : إن ألفونص – بطل وسارد «المخطوط الذي عثر عليه في سرقسطة» – يبدو بهذا، في الإشارة الأولى من مفتتح الرواية، كمن يدعو القارئ إلى التأهب ليلتقط كل شيء ويدركه ويطوف بنظرة واحدة مختلف الخرائط التي تنبسط أمام عينيه بقدر ما تتسلسل الجغرافيات المختلفة. وحينئذ فقط سيكون على أتم استعداد لقراءة هذه الرواية وكأنها خريطة جامعة تتشرب وتُنظم تعدد الخرائط التي ترتسم داخلها هي بالذات.

الهـــوامش

1 Michel Serres, *Jouvences sur Jules - Verne*, Paris : Editions de Minuit, 1974, p. 150

2 Les citations des récits de voyages de - Potocki proviennent de l'édition des voyages donnée par Daniel Beauvois (t.1 : *Voyages en Turquie et en Egypte, en Hollande, au Maroc* ; t.2 : *Voyages au Caucase et en Chine*), Paris, Fayard, « La Bibliothèque des voyageurs », 1980.

3 Les citations du manuscrit trouvé à - Saragosse proviennent de l'édition donnée par René Radrizzani, Paris, José Corti, 1989.

4 *Histoire de ma vie*, Paris, Laffont - « Bouquins », t. III, 1993, p. 620.

5 – انظر كتابه شعرية النثر، سوئ، باريس، 1971، وأيضا طبعة 1978، ص 33-46.

6 Au sujet du rapport entre Potocki et - Cervantés, voir François Rosset, «Saragosse ou le siège du lecteur», in *Jan Herman et Fernand Hallyn* (éd.), Le Topos du manuscrit trouvé, Louven, Peeters (à paraître).

7 Christian Jacob, *L'Empire des cartes. - Approche théorique de la cartographie à travers l'histoire*, Paris, A. Michel, 1992, p. 34.

